٩ - شاعرنا العالمي

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

زهده وتكسبه بالشعر: كان أبو العتاهية مع زهده لا يترك التكسب بشعره، وإذا رجعنا إلى حاله في ذلك وجدناه لم ينقطع عن بني العباس وقبول جوائزهم من عهد المهدي الذي ابتدأ اتصاله بهم فيه، إلى عهد المأمون الذي انتهت فيه حياته، وقد طعن عليه بذلك في زهده كثير من منافسيه في الشعر وغيره، وحملوا ذلك منه على الرياء والمخادعة، وقد أنشد المأمون بيت أبي العتاهية يخاطب سلماً الخاسر:

تعالى اللهُ يا سَلْمَ بن عمرو ... أذلَّ الحرص أعناق الرجال

فقال المأمون: إن الحرص لمفسد للدين والمروءة، والله ما عرفت من رجل قط حرصاً ولا شرهاً فرأيت فيه مصطنعاً. فبلغ ذلك سلماً فقال: ويلي على المخنث الجرار الزنديق، جمع الأموال وكنزها، وعبأ البِدَرَ في بيته، ثم تزهد مراآة ونفاقاً، فأخذ يهتف بي إذا تصديت للطلب. واجتمع أبو العتاهية مع جماعة عند قُثَم بن جعفر بن سليمان فأخذ ينشد في الزهد، فطلب قثم الجماز فأحضر اليه وأبو العتاهية ينشده، فأنشأ الجماز يقول:

ما أقبح التزهيد من واعظ ... يزهِّد الناس ولا يزهد
لو كان في تزهيده صادقاً ... أضحى وأمسى بيته المسجد
يخاف أن تنفد أرزاقه ... والرزق عند الله لا ينفد
والرزق مقسوم على من ترى ... يناله الأبيض والأسود

فالتفت أبو العتاهية اليه فقال من هذا؟ قالوا الجماز، وهو ابن أخت سلم الخاسر، اقتص لخاله منك، فأقبل عليه وقال له: يا ابن أخي إني لم أذهب حيث ظننت ولا ظن خالك ولا أردت أن أهتف به، وإنما خاطبته كما يخاطب الرجل صديقه، فالله يغفر لكما، ثم قام.

وحدث حبيب بن عبد الرحمن عن بعض أصحابه قال: كنت في مجلس خزيمة فجرى حديث ما يسفك من الدماء، فقال والله مالنا عند الله عذر ولا حجة إلا رجاء عفوه ومغفرته، ولولا عز السلطان وكراهة الذلة، وأن أصير بعد الرياسة سوقةً وتابعاً بعد ما كنت متبوعاً، ما كان في الأرض أزهد ولا أعبد مني، فاذا هو بالحاجب قد دخل عليه برقعة من أبي العتاهية فيها مكتوب:

أراك امرءاً ترجو من الله عفوه ... وأنت على ما لا يحب مقيم
تدل على التقوى وأنت مقصر ... أيا من يداوي الناس وهو سقيم
وإن امرءاً لم يلهه اليومُ عن غد ... تخوُّف ما يأتي به لحكيم
وإن امرءاً لم يجعل البر كنزه ... وإن كانت الدنيا له لعديمُ

فغضب خزيمة وقال: والله ما المعروف عند هذا المتوه الملحف من كنوز البر فيرغب فيه حر. فقيل له وكيف ذاك؟ فقال لأنه من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله

وقد كان أبو العتاهية يجمع إلى أخذه بهذا التكسب الذهاب في البخل إلى حد مكن منه خصومه فشوهوا به زهده أيضاً، وله في بخله نوادر كثيرة، وأخبار مأثورة، قال ثمامة بن أشرس أنشدني أبو العتاهية:

إذا المرء لم يعتق من المال نفسَهُ ... تملكه المال الذي هو مالكه
ألا إنما مالي الذي أنا منفق ... وليس لي المال الذي أنا تاركه
إذا كنتَ ذا مال فبادر به الذي ... يحق وإلا استهلكته مهالكه

فقلت من أين قضيت بهذا؟ فقال من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليتَ، أو تصدقت فأمضيت. فقلت له أتؤمن بأن هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وانه الحق؟ قال نعم، قلت فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرة في دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكي، ولا تقدمها ذخراً اليوم فقرك وفاقتك؟ فقال يا أبا معن والله إن ما قلت لهو الحق، ولكني أخاف الفقر والحاجة إلى الناس. فقلت وبم تزيد حال من افتقر على حالك وأنت دائم الحرص، دائم الجمع، شحيح على نفسك، لا تشتري اللحم إلا من عيد إلى عيد. فترك جواب كلامي كله، ثم قال لي والله لقد اشتريت في يوم عاشوراء لحماً وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم، فلما قال لي هذا القول أضحكني حتى أذهلني عن جوابه ومعاتبته، فأمسكت عنه وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للاسلام

وحدث محمد بن عيسى الخزيمي وكان جار أبي العتاهية قال: كان لأبي العتاهية جار يلتقط النوى، ضعيف سيء الحال، متجمل عليه ثياب، فكان يمر بأبي العتاهية طرفي النهار، فيقول أبو العتاهية اللهم أغنه عما هو بسبيله، شيخ ضعيف سيء الحال عليه

ثياب متجمل ، اللهم أعنه ، اصنع له ، بارك فيه ، فبقى على هذا إلى أن مات الشيخ نحواً من عشرين سنة ، فقلت له يوماً يا أبا إسحاق إنى أراك تكثر الدعاء لهذا الشيخ ، وتزعم أنه فقير مقل ، فلم لا تتصدق عليه بشيء ؟ فقال أخشى أن يعتاد الصدقة ، والصدقة آخر كسب العبد ، وإن فى الدعاء خيراً كثيراً

وقال على بن مهدى حدثنى الحسين بن أبى السرى قال : قيل لأبى العتاهية مالك تبخل بما رزقك الله ؟ قال والله ما بخلت بما رزقنى الله قط ، قيل له وكيف ذاك وفى بيتك من المال ما لا يحصى ؟ قال ليس ذلك رزقى ، ولو كان رزقى لأنفقته

وقال محمد بن عيسى قلت لأبى العتاهية أتزكى مالك ؟ فقال والله ما أنفق على عيالى إلا من زكاة مالى ، فقلت سبحان الله ، إنما ينبغى أن تخرج زكاة مالك إلى الفقراء والمساكين ، فقال لو انقطعت عن عيالى زكاة مالى لم يكن فى الأرض أفقر منهم

فأما تكسب أبى العتاهية بالشعر فلا شيء فيه عندى مع أخذه بذلك الزهد ، لأن الزهد فى الاسلام لا يمنع صاحبه من الأخذ بالأسباب والسعى فى الحصول على الرزق ، والتكسب بالشعر سبب من تلك الأسباب ، والشعر فن من الفنون التى لا غنى للدولة عنها ، فيجب أن يأخذ حظه من الأموال التى تجبى فيها ، ويجب على أرباب الدولة أن يبسطوا أيديهم بالعطاء لرجاله ، ليتوفروا على إجادته ، ويتضافروا فى النهوض به ، وليس على الشعراء من حرج إذا لم يصل نصيبهم من ذلك إليهم أن يتلطفوا فى الوصول إليه بمدح الملوك والوزراء ، وكذا غيرهم ممن فى أيديهم تلك الأموال ، وإنما يذم التكسب بالشعر إذا بالغ صاحبه فى الالحاح به ، وجعله كل غايته من الشعر ، فحمله ذلك على الالتواء فى سبيله ، واتخاذ الشعر أداة شر بين الناس ، يقلب الحقائق بينهم ، ويجعل فى سبيل المال الباطل حقاً والحق باطلاً ، والظلم عدلاً والعدل ظلماً ؛ وقد تكسب الشعراء بشعرهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان له شعراء يمدحونه وينصرون دعوته ، ويدافعون عنه أعداءه ، ويردون عنه هجاءهم بالحق إذا هجوه بالباطل

ولم يكن شاعرنا أبو العتاهية بحيث يصل به التكسب بالشعر إلى هذا الحد ، وقد مضى لنا فى ترجمته ما يؤيد ذلك له ، وكم له من مواقف مشهودة مع ملوك عصره وأمرائه ، لم تنسه فيها جوائزهم أن ينكر عليهم ما يستحق الانكار منهم ، أو يغضب لنفسه إذا رأى منهم أقل تهاون به . حدث الحسين بن أبى السرى قال : مر القاسم بن الرشيد فى موكب عظيم ، وكان من أتيه الناس ، وأبو العتاهية جالس مع قوم على ظهر الطريق ، فقام أبو العتاهية حين رآه إعظاماً له ، فلم يزل قائماً حتى جاز فأجازه ولم يلتفت اليه ، فقال أبو العتاهية :

يقيه ابنُ آدم من جهله ... كأن رحا الموت لا تطحنُهْ

فسمع بعض من كان فى موكبه ذلك فأخبر به القاسم ، فبعث إلى أبى العتاهية وضربه مائة مقرعة ، وقال له : يا ابن الفاعلة أتعرض بى فى مثل ذلك الموضع ؟ وحبسه فى داره ، فدس أبو العتاهية إلى زبيدة بنت جعفر وكانت توجه له هذه الأبيات :

حتى متى ذو التيه فى تيهه ... أصلحه الله وعافاهُ

يقيه أهل التيه من جهلهم ... وهم يموتون وإن تاهوا

من طلب العز ليبقى به ... فان عز المرء تقواه

لم يعتصم بالله من خلقه ... من ليس يرجوه ويخشاه

وكتب إليها بحاله وضيق حبسه ، وكانت مائلة اليه فرقت له ، وأخبرت الرشيد بأمره وكلمته فيه ، فأحضره وكساه ووصله ، ولم يرض الرشيد عن القاسم حتى رضى أبا العتاهية وأدناه واعتذر اليه

وحدث محمد بن عيسى قال : كنت جالساً مع أبى العتاهية إذ مر بنا حميد الطوسى فى موكبه ، وبين يديه الفرسان والرجالة ، وكان بقرب أبى العتاهية سوادى على أتان ، فضربوا وجه الاتان ونحُّوه عن الطريق ، وحميد واضع طرفه على معرفة فرسه ، والناس ينظرون اليه يعجبون منه وهو لا يلتفت تيهاً ، فقال أبو العتاهية :

للموتِ أبناءٌ بهمْ ... ماشئت من صلف وتيه

وكأننى بالموت قد ... دارتْ رحاه على بنيهْ

فلما جاز حميد مع صاحب الأتان قال :

ما أذلَّ المُقِلَّ فى أعين النا ... س لاقلاله وما أقساهُ

إنما تنظر العيون من النا ... س إلى من ترجوه أو تخشاه

وقد كان أبو العتاهية فى آخر أمره يحاول جهده أن يجعل جوائز الملوك وغيرهم اليه فى نظير هدايا يتقدم بها اليهم ، كما كان يفعل ذلك مع الأمين والمأمون فيما ذكرنا فى ترجمته ، وهو فى ذلك يشعر بسمو منزلته إلى منزلتهم ، ويترفع عن ذلك التكسب الذى كان يأخذ به فى أول أمره ، وإن كان على تلك الطريقة التى لم يكن لها أثر معيب فى نفسه

وأما بخله فنعتقد أنه لم يصل فيه إلى ذلك الحد الذى يؤثر فيه ما أثر عنه من تلك النوادر وغيرها ، وإنما ذلك من اختلاق

خصومه ومنافسيه عليه، ليشوهوا منه تلك الصيحة الْمُدَوِّيَة في الزهد ، ويظهروه فى مظهر من يقول بما لا يفعل ، فلا يتأثر الناس بدعوته ، ولا ينظرون إلى أقواله ، ولاشك أنه يشفع لأبى العتاهية فى ضنه بماله أنه كان رجلاً شاعراً يجمع ماله من أيدى الملوك والعظماء ، ويبذل فى ذلك ماء وجهه على ما كانت عليه نفسه من عزة ورفعة ، فاذا ضن به بعد هذا فانما يحمله على ذلك أن يكون دائماً فى غير حاجة ملحة إلى من يحاول أن يشترى شعره بها ، فيسير فيه كما يشتهى هو لا كما يشتهى غيره ، وقد كان أبو العتاهية دائماً مهدداً من أجل هذا بالحرمان ، وعرضة للتضييق والسجن واستباحة المال ، فهو يجمع من ذلك ما يجمع ليجده فى وقت حرمانه ، ويضن به على من لا يجده فى ذلك الوقت إلا عدوا له أو شامتاً فيه ، وقد كان يجد من الناس ماساء به ظنه فيهم ، وآثر به العزلة عنهم، وكان له فيهم مذهب غريب يقضى بتبخيلهم كلهم ، فهو يقارضهم بخلاً ببخل ، ويضن عليهم ضناً بضن ، قال مخارق : لقيت أبا العتاهية على الجسر ، فقلت له : يا أبا اسحاق أتنشدنى قولك فى تبخيل الناس كلهم ؟ فضحك وقال لى : ها هنا ؟ قلت : نعم ، فأنشدنى :

إن كنت متخذاً خليلا فَتَنَقَّ وانتقد الخليلا
من لم يكن لك منصفاً فى الود فابغ به بديلا
ولربما سئل البخيـ ـل الشيء لا يسوى فتيلا
فيقول لا أجد السبيـ ـل اليه يكره أن ينيلا
فلذاك لا جعل الالـ ـه له إلى خير سبيلا
فاضرب بطرفك حيث شئـ ـت فلن ترى إلا بخيلا

فقلت له : أفرطت يا أبا اسحاق ، فقال : فديتك فأكذبنى بجواد واحد ؟ فأحببت موافقته ، فالتفت يميناً وشمالاً ، ثم قلت : ما أجد ؛ فقبل بين عينى وقال : فديتك يابنى ، لقد رفقت حتى كدت تسرف

وهكذا مضى أبو العتاهية عظيما لم يزر به بخله ولا تكسبه بشعره ، كما أزرى ذلك بغيره ، ولو أن ذلك أزرى به كما زعمه خصومه لما كان لمنصور بن المهدى أن عد اليه يده ليزوجه إحدى ابنتيه ، وقد كان لأبى العتاهية بنتان : احداهما « لله » والأخرى « بالله » ، فخطب منصور منه « لله » فلم يزوجه ، وقال : إنما طلبها لأنها بنت أبى العتاهية ، وكأنى به قد ملها فلم يكن لى إلى الانتصاف منه سبيل ، وما كنت لأزوجها إلا بائع خزف وجرار ؛ ولكنى أختاره لها موسراً ؟

عبد المتعال الصعيدى

في اللغة والأدب

٢ ــ المثنيات

فى التاريخ والجغرافية والفلك

للأستاذ محمد شفيق

(الأخشبان) هما جبلا مكة الملصقان بها : أبو قبيس والأحمر ، وهو الجبل المشرف وجهه على قعيقعان ، والأخشب فى اللغة هو الجبل الخشن العظيم ، ويقال هو الذى لا يرتق علوه . وهما جبلا منى . وقيل هما الأخشب الشرقى والأخشب الغربى ، فالشرقى أبو قبيس والغربى جبل الخط من وادى ابراهيم . قال أبو عبيد : وأخشبا المدينة حرتاها

(البونان) بفتح الموحدة وسكون الواو : موضعان باليمن البون الأعلى والبون الأسفل ، وهما متصلان من أعمال صنعاء ، ويقال إن فيهما البئر المعطلة والقصر المشيد المذكوران فى القرآن الكريم

(الخراتان) نجمان من كواكب الأسد ، وقيل كوكبان بينهما قدر سوط وهما كتفا الأسد ، وقيل سميا بذلك لنفوذهما إلى جوف الأسد

(الزبانيان) هما كوكبان نيران ، وهما قرنا العقرب ينزلهما القمر ، وهما مفترقان بينهما أكثر من قامة الرجل فى رأى العين ، ويسميهما أهل الشام يدى العقرب ، ويقال لهما زبانى الصيف ، لأن سقوطهما فى زمن تحرك الحر

(الشرطان) نجمان من الحمل وهما قرناه

(الشرفان) بالوادى الأخضر من دمشق وهما الجانبان المتقابلان شرف أعلى وهو الشمالى وأدنى وهو القبلى ، وبينهما الوادى والنهران بردى وبانياس . ويقال : فلان حاز الشرفين أى شرف الأب والأم

(الغوطتان) بدمشق معروفتان قبلية وشمالية

(الصفصافتان) معروفتان عند الدمشقيين ، وهما : شجرتا صفصاف بالوادى التحتانى ممدتان للتنزه ذكرهما الشعراء المتأخرون فى أشعارهم فمنهم الأمير المنجكى حيث قال :